المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثاني - الإصدار الثامن عشر
تأريخ الإصدار: 20 أبريل 2021م

التمييز بين المقاربتين السيميائية والسوسيولوجية للمدينة

Distinguish between the semiotic and sociological approach to the city

الدكتور/ حاتم لفضيل
أستاذ علم الاجتماع، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.
Email: hatimlafdil20012001@gmail.com

ملخص:

يهدف المقال إلى الإجابة عن إشكالية مفادها: ماهي الشروط الموضوعية لإمكان تقديم تحليل سيميائي فعلي للمدينة؟ هي إشكالية تتجاوز السؤال التقليدي للسيمائيين: كيف يمكن اعتبار المدينة "شيئا" يحيل أو يتكلم عن شيء آخر غير ذاتها؟ إلى سؤال: إذا كانت المدينة نصا اجتماعيا فما هي اللغة التي كتب بها هذا النص؟، يعرض المقال لتصور يتجاوز فهم السيمائيين للمدن باعتبارها نسقا سيمائيا تكون فيه المعاني الوظيفية والاجتماعية مجرد شيء مضاف إلى المدينة باعتبارها بناء ماديا، هو تصور يفترض أنه على أهمية كل المقاربات السيمائية للمدينة، فإنها جميعا وبلا استثناء لم تحط بالماهية الحقيقية للمدن، وتحديدا بعدها المجالي، وهو الأمر الذي استدعى الانفتاح على نظرية التركيب المجالي لصاحبها **بيل هيلليير** باعتبارها نظرية سوسيولوجية تمكن من إعادة بناء العلاقة بين المدينة والمعاني المقترنة بها بشكل أكثر شمولية وإجرائية من خلال إتاحة التعامل مع المدن باعتبارها نصوصا تتحدث لغة خاصة يمكن قراءتها فعليا، وهذا الأمر يفتح آفاقا جديدة أمام التحليل السيميائي للمدن.

الكلمات المفتاحية: المجال الحضري، سيمياء المدينة، سوسيولوجيا المدينة، لغة المجال، نظرية التركيب المجالي.

المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثاني - الإصدار الثامن عشر
تأريخ الإصدار: 20 أبريل 2021م

Distinguish between the semiotic and sociological approach to the city

Abstract

The article aims to answer an important problem: What are the conditions for the possibility of establishing a semio-sociology of the city? It is a problem that goes beyond the traditional question of semiotics: How can cities be considered as a "thing" that "speaks out" something else than themselves? To the question: If the city is a social text, what is the language in which this text is written? In this context, the article goes against the perception of cities as a semiotic system in which functional and social meanings are just added to the city as a physical entity. The article argue that without taking the spatial dimension of the city seriously, all the semiotic approaches of the city can't grasp the real essence of cities, which explain why the turn to Bill Hillier's theory of space as a social reality could provide the semiotic analysis of the city with a useful theoretical tool to a better understanding of the relationship between the city and its meanings.

Keywords: Urban space, semiotics of the city, sociology of the city, language of space, space syntax theory.

1- مقدمة

تتمايز المدن فيما بينها على المستوى الاجتماعي والوظيفي والمورفولوجي، فهي تضم في آن واحد فئات اجتماعية عديدة ومختلفة، وهي تتسع لأنشطة واستعمالات اجتماعية لا محدودة، وهي أيضا تمتلك خصائص فيزيائية وأشكالا مجالية عديدة تبدو عصية على الضبط، وفوق كل ذلك، تبدو المدن حاملة لمعاني ودلالات تتعدد بتعدد السياقات الثقافية لنشأتها أو انبثاقها. ولأجل طبيعتها هذه، أثارت المدن اهتمام الكثيرين: السوسيولوجيين، والجغرافيين، والمؤرخين، والمعماريين، وقد حاول هؤلاء جميع الإجابة عن أسئلة من قبيل العلاقة بين البنيات المجالية والبنيات الاجتماعية، وطبيعة التأثير المتبادل بين البنيتين، وكذا أشكال حضور الثقافي والاجتماعي في المدن، ولأن المدن ليست فقط بشرا وبنايات وأشكالا مجالية، بل رموزا وعلامات وصورا ذات معاني ودلالات، فقد أثارت أيضا اهتمام السيميائيين.

ورغم أن التحاق هؤلاء بالركب جاء متأخرا، فإن التراكم الكبير للدراسات السيميائية حول المدن، منذ الستينات إلى الآن، يكشف عن قوة الاشتغال العلمي الذي قام به السيميائيون نظريا ومنهجيا، ويمكن في هذا الصدد ذكر مساهمات **رولان بارت، وألخيرداس غريماس**، و **ألكسندروس لاغوبولوس**، و**منار حماد**، و**أمبرتو إيكو**. لقد كان السؤال الرئيسي الذي حاول السيميائيون الإجابة عنه هو: كيف يمكن دراسة المدن كنسق سيميائي؟ أو بعبارة أخرى: بأي معنى يمكن اعتبار المدن تحيل أو تتكلم عن شيء آخر غير ذاتها؟

وبغض النظر عن تعدد الإجابات المقدمة على السؤال، فإن خيطا ناظما يربطها جميعا هو اعتبار المدينة نصا حتى يتسنى مقاربتها سيميائيا ضمن الأطر النظرية للأنساق السيميائية غير المتلائمة مع النموذج اللساني، ويأتي **أمبرتو إيكو** على رأس السيميائيين الذين يعتبرون المدن، والمجالات المبنية، وكل أشكال العمارة بصفة عامة، موضوعات أو نصوصا حاملة لمضامين وظيفية واجتماعية بالإمكان قراءتها سيميائيا، وفي هذا الصدد بالتحديد، يفترض المقال أنه على أهمية كل المقاربات السيميائية للمدينة، خاصة مقاربة **أمبرتو إيكو**، فإنها جميعا وبلا استثناء لم تحط بالماهية الحقيقية للمدن، وتحديدا بعدها المجالي، وهو الأمر الذي يستدعي الانفتاح على نظرية التركيب المجالي لصاحبها **بيل هيليير** باعتبارها نظرية سوسيولوجية تمكن من إعادة بناء العلاقة بين المدينة والمعاني المقترنة بها بشكل أكثر شمولية وإجرائية من خلال إتاحة التعامل مع المدن باعتبارها نصوصا تتحدث لغة خاصة يمكن قراءتها فعليا، وهذ الأمر يفتح آفاقا جديدة أمام التحليل السيميائي للمدن.

أهمية الدراسة

تتطلب المعرفة العلمية الموضوعية اليوم، الاقتناع بأن الانفتاح على مجالات معرفية مختلفة من أجل بناء تصور شامل حول "موضوع ما" هو ضرورة ملحة، وإذا كانت هذه القناعة قد ترسخت في العلوم الطبيعية والفيزيائية، بشكل لا يجد فيه عالم البيولوجيا مثلا أي حرج في الاستعانة بعالم الرياضيات لفهم صيرورة تطور الفيروسات، فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية ما تزال في الواقع حبيسة مقارباتها النظرية والمنهجية، تلك المقاربات التي شكلت نواة نشأتها الأولية. بل إن انتصار بعض فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية لتخصصها أو خصوصيتها في مقاربة إشكالية ما، قد يتحول إلى تعصب نظري ومنهجي، يرفض بلا سبب واضح الاعتماد على روافد معرفية أخرى،

بالرغم من أن هذه الروافد قد تقدم عناصر إجابة أكثر دقة وموضوعية عن الإشكالية المطروحة، بل إن المسألة تأخذ في بعض الحالات أبعادا أكثر تعقيدا حتى داخل التخصص نفسه، مثلما هو الحال في السوسيولوجيا عندما ينتصر بعض علماء الاجتماع **لإميل دوركايم** ومنهج مقاربته للواقع الاجتماعي، ويرفضون بالقطع مقاربة هذا الواقع وفق تصور **ماكس فيبر**، علما أن التوجهين معا في نهاية المطاف يقدمان مستويين متكاملين من التحليل رغم ما يبدو اختلافا بينهما.

وفي هذا السياق بالضبط، يمكن فهم أهمية مختلف مستويات التحليل في هذه الدراسة، فهي تقترح أرضية لبناء معرفة موضوعية للعلاقة بين المدينة والمعاني المقترنة بها بالاعتماد على مقاربة متعددة التخصصات، مقاربة تستدعي في آن واحد سيمياء المدينة، كما تستدعي السوسولوجيا الحضرية، إلى جانب ما يعرف بنظرية التركيب المجالي، طبعا على المستويين النظري والمنهجي، لنخلص في النهاية إلى بيان أن الاشتغال العلمي بالاعتماد على أطر نظرية مختلفة يمكن أن يجيب عن إشكالات على قدر كبير من التعقيد.

أهداف الدراسة

يمكن تحديد أهداف هذه الدراسة كما يلي:

أولا: إن اكتمال المعرفة بطبيعة المدن باعتبارها واقعا مجاليا واجتماعيا لا يتحقق دون تحديد أشكال حضور المعنى في هذا الواقع.

ثانيا: الوقوف عند مختلف المقاربات السيميائية للمدينة وبيان قصورها عن الإحاطة الشاملة بالعلاقة بين المدينة والمعاني المقترنة بها.

ثالثا: الوقوف عند المقاربة السوسيولوجية للمجال الحضري وكيف يمكن أن تساعد هذه المقاربة على الإحاطة بشكل أكثر دقة وعمقا بمختلف أبعاد هذا الواقعا ماديا ورمزيا.

رابعا: إذا كانت المدينة نصا اجتماعيا فإن اللغة التي كتب بها هذا النص تظل عصية على التحديد، وهنا يهدف المقال عبر تقديم بعض المبادئ الكبرى لنظرية التركيب المجالي لصاحبها **بيل هيليير** إلى بيان كيف تساعد النظرية على قراءة المجالات الحضرية للكشف عن المعاني المقترنة بها بأكبر قدر من الموضوعية.

1- من سيمياء المجال إلى سيمياء المدينة.

لم يثر المجال اهتمام السيميائيين إلى حدود سنوات الستينات، فعلى سبيل المثال نشر أ **.غريماس** كتابه Sémantique structurale[1] سنة 1965، ونشر **رولان بارت** كتابه Éléments de sémiologie[2] سنة 1966،

[1] - Barthes .R : *Éléments de sémiologie*, Paris, Denoël, 1965
[2] - Greimas A.J. :*Sémantique Structurale*, Paris, Larousse, 1966.

دون أن يحضر المجال فيهما كموضوع للتحليل السيميائي، بل إن **غريماس** – كما نقل عنه **منار حداد**[3]- كان لا يعتبر المجال أكثر من إطار يحدد مكان وقوع الفعل، لكن ابتداء من سنوات السبعينات، ظهرت بوادر الاشتغال العلمي على الموضوع، ومن مظاهر هذا التحول تنظيم **منار حداد** لندوة علمية سنة 1972 بباريس حول سيمياء المجال، حضرها معماريون وعلماء نفس وفلاسفة و أنثربولوجيون ونحاتون وعلماء رياضيات، وكان الهدف الرئيسي من اللقاء: الإحاطة بأكبر عدد من وجهات النظر بخصوص أشكال حضور المعنى في المجال، ولقد كان الجواب المقدم في نهاية اللقاء العلمي مكثفا جدا: إن المجال هو ما يقع فيه، والمقصود أن معاني المجال مقترنة بالأنشطة والممارسات التي تقع فيه، وقد كانت الإضافة الرئيسية للندوة هي أن للمجال وظيفة رمزية إلى جانب وظيفته المباشرة[4].

1-1 سيمياء المجال

عرض **منار حماد** في مقال مفصل– تتبع فيه مسار البناء العلمي لسيمياء المجال من خلال تجربته الأكاديمية الشخصية- مختلف المداخل الممكنة للكشف عن المعنى في المجالات الإنسانية[5]، واتخذ من المجال الذي يتحرك فيه الناس والأشياء منطلق التحليل السيميائي، و قد ميز **حماد** هنا بين مدخلين للدراسة السيميائية للمجال الدال: **أولا-** اعتبار البعد الداخلي للمجال واتخاذه منطلقا للتحليل، حيث يصبح المجال هنا المتضمن للأشياء والخلفية أو المسرح الذي تقع فيه الأحداث، مع استدعاء أبعاد مجالية مثل العمق و المساحة ومختلف أشكال المجالات المبنية، مع تقسيم المجال إلى وحدات جزئية دالة Topos، أي مجالات طوبولوجية مقترنة بنشاط محدد، ليتم استخلاص المعنى من خلال التقاطع بين هاته العناصر مجتمعة، **ثانيا-** المجال الدال منظورا إليه من الخارج، وهذه المقاربة لا تهتم بما يفعله الإنسان في المجال ولكن ما يفعله به، المجال هنا ليس ظرفا، إنه رهان للفعل[6].

لقد سعى **حماد** في المقال أيضا إلى تقديم الجواب عن بعض الإشكاليات العصية على الاشتغال المنهجي، والتي من أهمها إشكالية تعددية وظائف المجال، والعلاقة بين الشكل والمضمون، ومشكلة وصف التعبير المجالي وعلاقته بالبعد الهندسي للمجال، جزء من هذه الإشكاليات فتح الباب لنشأة ما يعرف بالمسار السردي Le parcours narratif حيث يتساءل السيميائي عن الأفكار التي يحملها شخص ما عن مكان ما زاره مرة، أو زاره مرات عدة، ليقدم **حماد** في نهاية التحليل ما يعتبر أنها عناصر بناء الموضوع سيميائيا: 1- الوصف الستاتيكي للمجال بواسطة الشكل التعبيري، 2- الوصف الدينامي للفعل، 3- الوصف التركيبي، 4- وصف تغير الشكل، 4- الجمع بين العناصر الوصفية الدينامية والثابتة[7].

ألكسندروس لاغوبولوس هو الآخر أغنى هذا الحقل الدراسي، بالتأكيد بداية على أننا أولا بحاجة للسيميائيات لدراسة الوقائع الثقافية، وأننا ثانيا بحاجة للمجال للدراسة السيميائية،

[3] - Mannar Hamad : La sémiotisation de l'espace : Esquisse d'une manière de faire, texte développé d'une communication faite au Greimo Centras, Vilnius, le 6 décembre 2012.
[4] -ibid
[5] -ibid
[6] - ibid
[7] -ibid

وأنه يمكن دراسة المجال سيميائيا بطريقتين: **أولا-** الدراسة المباشرة للمجال الموجود واقعيا، أي دراسة المجال المبني باعتباره نصا، **ثانيا-** دراسة المجال بشكل غير مباشر، أي دراسته من خلال نسق سيميائي وسيط، من قبيل تصورات المستعملين عن المجال، أو المجال كما يتم تمثيله في الدين والأساطير والفلسفة والأدب والسينما والرسم[8].

في السياق نفسه، عرضت **ناتالي رولينز Nathalie Roelens** في مقال مهم لبعض أهم المقاربات السيميائية للمجال، وتحديدا مقاربات كل من **Denis Bertrand** و **Claude Zilberberg** و **Pierluigi Basso** و **Éric Landowsk**، وعلى الرغم من الاختلافات الواضحة بين هذه المقاربات، فهي تتشارك العناصر التالية:

1- تثوي أطروحة **رولان بارت** مباشرة أو بشكل غير مباشر خلف البناء النظري والمنهجي لكل مقاربة، و يعود تصور **بارت** تحديدا إلى سنة 1967، في مداخلة له بعنوان Sémiologie et urbanisme، ومضمونه حرفيا:

« La cité est un discours, et ce discours est véritablement une langue : la ville parle à ses habitants, nous parlons notre ville, la ville où nous nous trouvons, simplement en l'habitant, en la parcourant, en la regardant. »

2- تسعى المقاربات جميعها إلى مد جسر بين سيميائيات المجال وتحليل النصوص.

3- تعتبر هذه المقاربات أن التحليل السيميائي للمجال بصفة عامة، أي المجال في أبعاده الفلسفية والوجودية والمادية، يفتح آفاقا أشمل وأغنى، مقارنة بالدراسة السيميائية للمدن، لما تتميز به المجالات الحضرية من خصائص ومميزات.

4- تعتمد هذه المقاربات بقوة على التحليل السيميائي للمدن أو للمجال داخل الروايات أو الأعمال الأدبية بصفة عامة.

5- تستدعي هذه المقاربات مختلف الأبعاد الإنسانية المقترنة بالمجال: الوجودية والنفسية والجسدية والرمزية واللغوية.

6- تعمل المقاربات على بناء تصنيف مجالي يعتمد أرضية للتحليل السيميائي أو العكس، أي بناء أنساق سيميائية يتم عبرها التحليل السيميائي للمجالات.

2-1 سيمياء المدينة.

أ- مقاربة جيانفرناكو مارون Gianfranco Marrone.

إن **مارون** من البداية يقطع الطريق على من يرفض اعتبار المدينة نصا، على أساس أنها عصية على التحديد لطابعها المركب، ويعتبر أن هذه الأطروحة محكومة بتصور تقليدي للنص، تصور يرى النص موضوعا مغلقا ومستقلا لا يصح اعتباره نموذجا لدراسة الثقافي والاجتماعي، في حين أن المدينة في الواقع نص دينامي ينبثق في سياق العلاقة بين المدينة وساكنها، إنها ليست شيئا، ليست فقط جزءا مبنيا من البيئة حيث تعيش جماعة من الناس، إنها المدينة تنشأ ضمن العلاقة بين مستويين: 1- المستوى المجالي ببنيتيه الشكلية والمادية كما تتجلى في المجالات الحضرية المختلفة،

[8] -Alexandros.Ph. Lagoupolos : The social semiotics of space: Metaphor, ideology, and political economy, in semiotica, 2009, p169.217

2- المستوى المجتمعي ببنيتيه النسقية والاجتماعية في أشكالها المختلفة. وهي بهذا المعنى تتكون من أجزاء حاملة لمعاني ودلالات مرتبطة فيما بينها بعلاقات وظيفية وتراتبية تشكلت على مدى طويل من التراكمات[9].

إن المدينة حسب **مارون** نص لأنها بالدرجة الأولى شكل، أي شبكة من العلاقات تستوعب مضامين ثقافية واجتماعية يستعملها الأفراد والجماعات، وهذه الشبكة قابلة للإدراك والتحليل والتأويل على مستويات عدة ظاهرة وخفية، وهي نص أيضا لأنها حاملة للبعد الرمزي بقوة، وأخيرا هي نص لأن المدينة هي مجال التعارض بين المركز والضاحية، بين الهامش والمركز، وبين الأحياء الراقية والصفيحية، وبين قاطني ناطحات السحاب وقاطني الأنفاق، إن المدينة نص داخل النص[10].

ب- مقاربة أمبرتو إيكو

عرض **أمبرتو إيكو** لتفاصيل نظريته حول سيميائيات المدينة بشكل غير مباشر في مقال نشره تحت عنوان[11] : **Function and Sign: Semiotics of Architecture**، وفي هذا المقال شرح **إيكو** كيف يمكن تطبيق مبادئ السيميائيات على العمارة وعلى المجالات المبنية. إن خطأ التحليل السيميائي للمدن، حسب **إيكو**، يكمن في أن الجميع يعتبر أن البعد الهندسي للمجالات المبنية المدخل الرئيسي للدراسة السيميائية للمدن[12]، كما أن الكل يركز، بصفة عامة، على الوظيفة المباشرة للمجالات المبنية، مع التجاهل التام لوظيفتها التواصلية، والحال أن البنايات تقوم بوظيفة تواصلية هائلة، إنها تنقل باستمرار رسائل يقرأها الناس ويفهمونها، وهي رسائل تترسخ عبر الزمن، وذلك باستعمال العناصر أو المكونات الأساسية في البناء، ومن مخرجات الوظيفة التواصلية للبناء مثلا: قدرة مدينة ما أو بناء ما على جذب الزوار[13].

يميز **إيكو**، في هذا الصدد، بين الوظائف الأولية للبناء أو للمدينة، وهي وظائف عملية مباشرة، وبين الوظائف الثانوية، وهي الوظائف الخفية للمجال المبني، والتي لا يمكن الكشف عنها بسهولة، معتبرا أن الوظائف الأولية تحيل سيميائيا على الوظيفة التقريرية للنسق، في حين تقترن الوظائف الثانوية بالبعد الإيحائي للنسق، والفكرة هنا، أن المجالات المبنية تملك قدرة تواصلية، وأن الخطاب الذي تنتجه المدن هو خطاب يتوجه إلى كل الناس، وأن هؤلاء بإمكانهم القبض على معانيه، لأنه أولا خطاب سهل وأقل تعقيدا من الخطاب الذي تحمله لوحة فنية ما، ولأنه ثانيا خطاب يفرض نفسه على المتلقي بصرامة وبثبات، ولأنه ثالثا خطاب ينبني على أسنن ثلاثة: 1- سنن تقني ومنطقي، 2- سنن تركيبي، 3- سنن دلالي، وهذه الأسنن الثلاثة هي بمثابة اللغة التي يتكلم بها المجال المبني.

[9] - Gianfranco Marrone : Sémiotique et critique de la culture. Espace, nourriture, nature, objets ,traduction de Rovena Troque, Edition Fabula, 2018.
[10] - ibid
[11] - Umberto Eco : Function and Sign: Semiotics of Architecture, in Rethinking Architecture: A Reader in Cultural Theory 2nd Edition by Neil Leach , 1997, pp. 177-195
[12] -ibid
[13] -ibid

يصف **إيكو** المدينة في حوار[14] مع **Francesca Piolot** سنة 1996 كما يلي:

« la ville est un objet extraordinaire, c'est un livre, c'est un endroit où on se promène, où on vit, on explore…dans une ville lorsque vous restez dans l'hotel cette ville n'existe pas, ça veut dire qu'elle vous a rien dit..toutes les villes sont des villes, mais il y a des villes qui sont plus villes que les autres, comme Paris, et paris c'est la villéité ! »[15]

لكن إذا كانت المدينة كتابا أي نصا، فهي ليست أي نص، إنها نص متعدد المعاني والاتجاهات، ففي المدينة هناك الناس والأشياء والمقاهي والوجوه والمدينة التحتية(المترو)، وهناك أيضا المدينة المعيشة أي المدينة كما يعيشها الناس واقعا وذكريات، لكن تعدد معاني النص الحضري لا يعني أبدا حمل المدينة على أي معنى، والقصد أن هناك حدودا لقراءة المدينة كنسق سيميائي، وهذه الحدود مرتبطة ضرورة باللغة الحقيقية التي تكتب بها المدينة، وهنا يكمن الدور الفعلي لسيمياء المدينة كما تصور **رولان بارت** يكمن تحديدا في تجاوز لغة الاستعارة للتعبير عن المضامين الثقافية والاجتماعية للمدن لصالح لغة موضوعية.

ج- ملاحظات على المقاربات السابقة.

لقد ساعدت المقاربات السابقة على إغناء الدراسة السيميائية للمجال بصفة عامة، وللمدن بصفة خاصة، لكن هذا لا يمنع من أن نسجل بخصوصها الملاحظات الأساسية التالية:

1- تعتبر المقاربات جميعها أن المدينة نسق سيميائي متعدد الأبعاد، إنها نص مكتوب بلغة يفهمها المستعملون أفرادا وجماعات، لكنها لا تبين طبيعة اللغة التي تخاطب بها المدينة الناس.
2- تعتبر المقاربات أن هناك بعدا موضوعيا للمجال، لكن لا يتم التوقف بعمق عند هذه الموضوعية على المستوى الابستمولوجي.
3- سيمياء المجال أو سيمياء المدينة يتم إسقاطها لصالح أنساق سيميائية أخرى من قبيل تجربة المجال، أو أشياء المجال، أو سيمياء العمارة.
4- تعتبر كل المقاربات أن المجالات المبنية، والمدن بصفة خاصة، حاملة للمعاني والدلالات، أي حاملة للثقافي والاجتماعي، لكنها لا تخبرنا عن كيفية حضور هذا الثقافي في البناء، بعبارة أوضح لا تجيب المقاربات بدقة عن سؤال: كيف تحضر المعاني في المجال؟
5- تعتبر بعض المقاربات أن الاختلاف بين المقاربتين السيميائيتين للمجال والمدينة هو اختلاف في الموضوع، وقد يصبح اختلافا في المنهج، في حين أنه اختلاف ابستمولوجي.

---

[14] - Interview avec Francesca Piolot: A voix nue - Umberto Eco 1/5 (1ère diffusion : 22/04/1996, Publié le vendredi 13 janvier 2017 à 07:05 par podcast@radiofrance.com , Durée : 30:03.
[15] - ibid

6- لا تجيب المقاربات جميعها عن سؤال رئيسي: ما هو المجال واقعيا؟

2- السوسيولوجيا والمجال الواقعي.

شدت المدينة اهتمام السوسيولوجيين منذ البدايات الأولى لعلم الاجتماع، **فإميل دوركايم** يعتبرها مجتمع التضامن العضوي المبني على الاختلاف وتقسيم العمل الاجتماعي، والمدينة عند **ماكس فيبر** هي مدينة الفاعلين بمختلف أصنافهم: ملاكي الأراضي، والمتقاعدين، والبنكيين والمنتجين الصناعيين، وهي عند **لويس وورث** - أحد سوسيولوجيي مدرسة شيكاغو- تحيل على ثقافة محددة مقترنة بنمط عيش مميز، لكن رغم تعدد هذه التحديدات فإنها جميعها تتقاسم المبادئ الكبرى التالية: 1- تجاوز التحديد الكمي للمدينة، أي حجمها وعدد ساكنتها، 2- بناء تعريف المدينة بالعلاقة مع مفهوم التحضر، باعتباره مفهوما سوسيولوجيا يحيل على واقع اجتماعي دينامي ومركب، يتشكل في آن واحد في إطار نسق اجتماعي ونسق مجالي، 3- المجال واقع اجتماعي وليس واقعا مجردا، إنه متغير مستقل يمكن أن يلعب الدور نفسه الدي تلعبه البنيات الاقتصادية أو الدينية مثلا في إحداث التغيير الاجتماعي.

لأجل ذلك تنتقد السوسيولوجيا سيميائيات المدينة والمجال، على أساس أن النظرية السيميائية تصف البيئة باعتبارها نسقا من العلامات والرموز مضافا إلى الواقع الاجتماعي، إنها تصف البيئة بهدف إبراز وتوضيح كيف يمكن أن تعبر البيئة عن المحتوى الاجتماعي من خلال تمظهراتها[16]. وهذا ليس في حد ذاته مشكلة، إذ ليس هناك من شك بأن البنايات تحمل معاني اجتماعية من خلال تمظهراتها أو تجلياتها، لكن ما يفعله السيمائيون في الواقع هو أنهم يوضحون لنا كيف يمكن للبنيات تمثيل المجتمع كعلامات ورموز، وليس كيف تؤدي البنايات إلى تشكيل المجتمع على اعتبار أن البناء يساهم في تنظيم المجال، وفي الحقيقة **إنهم يتعاملون مع المعنى الاجتماعي باعتباره شيئا مضافا إلى السطح الظاهر، وليس بانيا ومكونا فعليا أو جوهريا في بناء شكل المجال وتنظيمه**، إن البناء هنا يتم التعامل معه كشيء عادي، مثله مثل بقية الأشياء[17]، إنهم يتعاملون معه مثل صورة، لذا فهم كما لا يجدون مشكلة في وضع السؤال: من أين تأتي المعاني إلى الصورة[18]، يضعونه بالصيغة نفسها على البناء، وبالنتيجة لا يتم التعامل مع المجال هنا في بعده الاجتماعي، وهنا يكمن جوهر الرفض القاطع للكثير من السوسيولوجيين للتحليل السيميائي للمدن.

أ- نظرية المدينة عند لوفيفر

إن المساهمة الأهم في سوسيولوجيا المجال في المدرسة الفرنسية سيكون رائدها هو **هنري لوفيفر** من خلال كتابين هامين "إنتاج المجال"[19] و"الحق في المدينة"[20]، لقد حاول **لوفيفر** في مقاربته للمفهوم تجاوز التعريفات المتعددة وغير الواضحة لمفهوم المجال باقتراح تعريف محدد له[21].

---

16 - Bill Hillier : A Theory of the City as Object , Or how spatial laws mediate the social construction of urban space, Proceedings Of The 3rd International Space Syntax Symposium Atlanta 2001, p1-28, p.8

17- ibid, p.8

18– هذا سؤال رولان بارت في الأصل.

19- Henri Lefebvre : La production de l'espace, Paris: Anthropos.1974

20 - Henri Lefebvre : Le Droit à la ville, Paris: Anthropos, 1968

21-Michel Watin : Habiter : approche anthropologique de l'espace domestique à La Réunion, p.15

في هذا السياق، يرى **هنري لوفيفر** أن المجال ليس معطى أوليا سابقا كما يقول كانط، كما أنه ليس شكلا رياضيا خالصا يقصى فيه الزمن المعيش والتاريخ، لذا لا معنى بأن نقول إن هناك مجالا مطلقا فارغا أو مليئا، إن المجال يحمل دائما صفة ما وإن لم ندرك ذلك، إن المجال ينتج، وهو نتيجة لما هو مادي صرف، وهو أيضا نتاج لقواعد، يدفع **لوفيفر** في اتجاه وصفها بالكونية، وتتميز بأنها تتطور وتخضع للضرورة الزمنية وفق منظور ماركسي.

إن كل مجتمع حسب **هنري لوفيفر** ينتج مجاله الخاص، ولكن هذا الإنتاج يتم من خلال ما يسميه تملك الأمكنة[22]، يكتب **هنري لوفيفر** لتأكيد هذه الأبعاد:

« L'espace est un rapport social inhérent aux rapports de propriété et aux forces productives... L'espace est un Produit qui se consomme, il est aussi moyen de production. Il ne peut se séparer ni des forces productives, des techniques et du savoir, ni de la division du travail social qui modèle, ni de la nature, ni de l'Etat et des superstructures [23]»

لكن هناك مسألة من المفترض الوقوف عندها في سوسيولوجيا المجال عند **لوفيفر**، هذه المسألة نستشفها من عبارته التالية: " إن الإقامة الحقيقية للإنسان هي دائما في المدينة أو بالعلاقة مع المدينة"[24].

ما معنى هذا؟ إنه يعني أن مفهوم الإنسان ذاته لا يكتمل في مستواه العام عند **لوفيفر** إلا في إطار البعد المجالي وتحديدا مجال المدينة، إن الإنسان عند **لوفيفر** هو الإنسان الحضري **L'Homo Urbanus**، والمدينة هي مسكنه الكبير والأكثر إنسانية[25]، ومن هنا أهمية سؤال المدينة في كتاباته.

على هذا الأساس، يتحدد مفهوم المدينة عند **هنري لوفيفر** في أنها المجال العام، وأنها مركز الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية بالنسبة لساكنتها[26]، وهي مجال الحياة المشتركة أو الاجتماعية بين الناس[27]، وبالتالي إن المدينة هي أضخم إنتاج إنساني، وبدونها لا وجود للحضارة ولا وجود للإنسانية ذاتها [28].

لكن قوة التحليل السوسيولوجي **لهنري لوفيفر** لا تكمن فقط في أنه رأى في المدينة إنتاجا انسانيا ضخما تتحقق عبره الأبعاد الوجودية للإنسان ككائن اجتماعي صانع للحضارات، ولكن لأنه **رأى فيها- تحديدا- واقعا اجتماعيا جديدا يميز القرن العشرين، واقعا متميزا يزحف ببطء على العالم، ولكن في تسارع مستمر ووفق صيرورة ستشمل الحياة الإنسانية ككل**، ووصف **لوفيفر** هذا الواقع الجديد **بكلمة واحدة: L'urbain**، وهو المفهوم المركزي في نظرية المدينة عنده.

---

22 - Henri Lefebvre *écrit* : «Générer un espace social approprié, dans lequel la société génératrice prend forme en se présentant et représentant, bien qu'elle ne coïncide pas avec lui et que même son espace soit aussi bien sa tombe que son berceau, cela ne s'accomplit pas en un jour. C'est un processus.» *La production de l'espace*, Paris: Anthropos.1974, p.43

23 - Henri Lefebvre *: La production de l'espace, op, cit, p102*

24 - Hye Kim : Kim.R.Hye : Habiter : Perspectives philosophiques et éthiques, De Heidegger à Ricoeur, These de Doctorat, Université de Strasbourg, Faculté de la théologie protestante, 2010-2011, p.212

25- Ibid , p.217

26 -Ibid , p.214

27 - Ibid, p.213

28 - Ibid, p.216

كيف إذن بلور **هنري لوفيفر** العلاقة بين هذا المجال الضخم وبين المجتمع؟ كيف تمكن موضوعيا من التعرف على المجتمعات من خلال البنيات المجالية، ما دام كل مجتمع يخلق مجاله الخاص؟

للإجابة يعتبر **هنري لوفيفر المدينة نصا تكتب فيه الحياة الحضرية**، نصا اجتماعيا علينا قراءته[29]، لكن كيف يمكن أن نقرأ "النص الاجتماعي" الذي هو المدينة؟ ما هي لغة هذا النص؟. هنا يقترح **لوفيفر** ثلاث مستويات أساسية للاشتغال، إن قراءة المجال الحضري تفرض علينا التمييز بين المجال المتمثل والمجال المعيش والمجال المصمم، الأول مجال الصور الذهنية والرموز والتمثلات الاجتماعية، والثاني مجال الممارسة والتجربة المجالية، والثالث المجال كما يصنعه المعماريون والعلماء والسياسيون.

لكن هنا علينا أن ننتبه لمسألة مهمة حذر منها **لوفيفر** بوضوح: إن المجال هو نص اجتماعي يمكن قراءته موضوعيا، نعم! لكن ليس بمنهج السيميائيات تحت أي ظرف، إن الواقع الحضري باعتباره واقعا اجتماعيا، لا يمكن الإحاطة به بشمولية باستعمال مفاهيم: مثل العلامة والرمز التي تميز السيميولوجيا، ويصف **هنري لوفيفر** هذا الاشتغال المنهجي بأنه أطروحة دوغمائية، كما يعتبر أن السيميولوجيا بالطريقة التي تشتغل بها منهجيا لا تنفع[30]، لأنها تفصل الحضري عن مورفولوجيته، أي عن شكله المجالي وعن واقع الممارسات الاجتماعية.

لكن على أهمية ما سبق، نجد - وعلى أهمية هذه التمييزات التي تحكمها كما هو معروف خلفية ماركسية، نجد في كتابات **هنري لوفيفر** جوانب عدة من اللبس والغموض في اللحظة التي يبدأ فيها بقراءة المدينة كنص اجتماعي. مثلا إن إقراره بوجود **"لغة خاصة"** للمجال، لم يمكنه من الكشف عن قواعد هذه اللغة، وما نجده في حديث **لوفيفر** عن المدينة هو وصف لا يركز على جانب معين، إذ يتقاطع فيه وصف المورفولوجيا المجالية مع وصف المورفولوجية الاجتماعية، مع تركيز أكبر على البعد الثاني، ودون التمكن الفعلي من الإحاطة بماهية الوجود الحقيقي للبعد المجالي، لذا يمكن أن تجد في نصوص **لوفيفر** عودة الى القراءة السيميولوجية التي انتقدها بحدة، وهذا الغموض أو الالتباس في كتاباته حول مفهوم المجال سوسيولوجيا شكل محور انتقادات عدة[31].

بشكل ما تدفعنا كتابات **لوفيفر**، خاصة نظريته حول المجالات الثلاث، حيث تركيزه على أشكال الإنتاج الاجتماعي للمجال، وتحديدا المجال المتمثل والمجال المعيش والمجال المصمم إلى القول أن البعد المجالي، على أهميته، في سوسيولوجيا **لوفيفر** يأتي في الترتيب بعد البعد الاجتماعي.

لكن مع ذلك، تبقى بلورة **هنري لوفيفر** لمفهوم L'urbain باعتباره واقعا اجتماعيا نقطة قوة نظريته الاجتماعية حول المجال، لأن المفهوم في آن واحد يعكس تقاطعا ضروريا بين البنيات المجالية والبنيات الاجتماعية بشكل لا يمكن الفصل بينهما، وإلا فإننا لا نكون أمام واقع اجتماعي حقيقي.

وبتركيز نقول: إن سوسيولوجيا **لوفيفر** في نهاية المطاف، هي سوسيولوجيا "إنتاج المجال" في واقع الأمر، وفي أفضل الحالات هي سوسيولوجيا "المجال المعيش"، انها تعود إلى الفاعلية الإنسانية قبل كل شيء، إنها ليست،

---

[29] -Ibid, p.226
[30] - Le Droit à la ville, Paris: Anthropos, op, cit, p.70-71
[31] - Tim Unwin : A Waste of Space? Towards a Critique of the Social Production of Space, Transactions of the Institute of British Geographers,Volume 25, Issue 1, pages 11–29, April 2000

من الناحية الإبستمولوجية، سوسيولوجيا المجال في حد ذاته، لكن ميزتها مع ذلك أنها تحمل في طياتها اقتناعا بضرورة – وليس فقط بأهمية - البعد المجالي لبناء الواقع الاجتماعين، كما تتضمن قناعة بوجود لغة مجالية حقيقية. أين توجد هده اللغة ؟ هنا تأتي مساهمة نظرية التركيب المجالي.

ب- نظرية التركيب المجالي

يرى **بيل هيليير** أن نظرية التركيب المجالي تهدف إلى بناء لغة مشتركة حول المجال[32]، لغة تسمح بقراءة المجالات البشرية المختلفة والكشف عن أبعادها الثقافية والاجتماعية بموضوعية كاملة، كما قال بذلك **أمبرتو إيكو وهنري لوفيفر** وهما يصفان **المدينة بأنها "نص اجتماعي"**، إن النظرية تقوم بالدور نفسه الذي تقوم به اللسانيات إزاء اللغة الطبيعية: إنها تسعى إلى إعادة بناء اللغة الإنسانية حول المجال[33]، وهذا الأمر ممكن حسب **بيل هيليير** لأن البنيات المجالية بشكل ما تتقاطع مع البنيات اللغوية، مما يتيح إجراء مقارنة بينهما أو على الأصح إجراء تقارب بينهما.

ففيما يتعلق باللغة الطبيعية، نجد أنها محكومة بمبدأين رئيسين: عندما نتكلم فإننا نستعمل كلمات ونتحكم فيها، لكن وراء ذلك هناك بنية تحكم ما نتكلم فيه، أولا هناك بنية قواعد، وثانيا هناك بنية دلالات، أي أننا - في آن واحد - نخضع للقواعد اللغوية التي تحكم كلامنا وللمعاني التي نريد تركيبها[34]، وعلى هذا الأساس، يميز **بيل هيليير**، داخل اللغة، بين ما يسميه الأفكار التي نفكر فيها، والأفكار التي نفكر بها أو من خلالها، الأولى هي في مستوى معاني ودلالات الكلمات، والثانية في مستوى قواعد اللغة[35].

المشكلة هنا، هي أن بنية اللغة ليست هي الجمع بين الكلمات أو الحروف بعضها مع بعض فقط، فبالرغم من أن الجميع يعتبر اللغة مجموعة من الكلمات توضع في عبارات ذات معنى وتحكمها قواعدها، فإن بنية اللغة في الواقع لا تنبنى على هذا الشكل، والقواعد التي تؤسسها ليست بهذه البساطة، إن بنية اللغة في الواقع هي القوانين التي تختزل بشدة، مختلف الإمكانات اللامتناهية للربط بين الكلمات، ومن خلال هذه الاختزالات نبني ما يقال وما له معنى، وغالبا ما لا نكون واعين بهذه القواعد[36].

قواعد اللغة لا تخبرنا إذن بما يجب علينا قوله، ولكنها تضع وتقيد بنية وحدود ما يقال، ومن خلال هذه الحدود تستعمل اللغة كوسيلة أولية لتحقيق فردانيتنا والتعبير عن المظاهر الاجتماعية والثقافية لوجودنا[37]، وبالتالي نجد أنفسنا في اللغة أمام اختلافات لامتناهية على مستوى التمظهر الخارجي لها أو ما يمكن تسميته بـالفينوتيب Phénotype، ولكن في الآن نفسه تكون

32- Bill Hillier : The common language of space; a way of looking at the social, economic and environmental functioning of cities on a common basis, Journal of environmental science,V11, N3, 1999, p.344-349

33- Bill Hillier : The Art of Place and the Science of Space, World Architecture 11,185, Special issue on Space Syntax,2005, p.29

34-In language for example we are aware of using words and phrases but we are not aware of the syntactic and semantic structure which configures theses into meningful patterns . In space is the machine , p.39

35 - Hillier Bill: Space is the Machine, A configurational theory of architecture, Cambridge University press, 1999, chapter 10, p.280

36 - Ibid, p.8

37 –لذا يميز فيرديناند دو سوسير باننا نتعلم الكلام وليس اللغة.

هذه الاختلافات أو الإمكانات اللامتناهية للفينوتيب Phénotype خاضعة لمجموعة محددة من القواعد تختزل النسق العشوائي، ولكنها تضبط أو تحدد توجهه الإنساني أيضا، هذه القواعد تسميها النظرية الجينوتيب Génotype [38].

وبالعودة إلى البنيات المجالية، يرى **بيل هيليير** أنها تخضع لقوانين أو قواعد تشبه إلى حد كبير قواعد اللغة (لذا تسمى اللغة بناء)[39]، وفي هذا السياق لا تحدد قوانين العمارة أو البناء ما يجب فعله بالنسبة للمصممين أو المهندسين، ولكن ما تفعله تحديدا هو اختزال وبنينة حقل الإمكانيات، لكن بدون هذه القواعد لن يكون البناء إنسانيا وذا معنى.

الخلاصة إذن ، أنه على مستوى المجال كما على مستوى اللغة، تظهر هذه القواعد ليس من خلال دراسة المظاهر Phénotypes، أي الأشكال المجالية المختلفة للتنظيمات المجالية، ولكن من خلال دراسة العلاقات المجالية أو العلاقات بين الأشكال المجالية بتعبير بيل هيليير، ومن خلال هذه الدراسة نكشف عن قوانين Génotypes التنظيم المجالي.

3- لغة المجال أو كيف يتكلم المجال عن نفسه.

إن قوة البناء الابستمولوجي لنظرية التركيب المجالي لا تكمن فقط في قدرتها على الإجابة عن الإشكالات النظرية والمنهجية المرتبطة بعلاقة المجال بالمجتمع فقط، بل تكمن أيضا في إعادة البناء المعرفي لمجموعة من المفاهيم، ويأتي على رأس القائمة هنا مفهوم المجال ذاته.

في هذا السياق، ينطلق **بيل هيليير** لكي يعرف المجال من ملاحظة بديهية جدا: إن المجال ظاهرة واقعية، لكن الحديث عنه يتم بصعوبة، فهو أولا يبدو كفراغ يحيط بالأشياء بدل كونه شيئا في حد ذاته، وبالتالي لا يبدو حاضرا في عملية تحديد وتعريف كليات العالم في عقل الإنسان، "فمجال" هكذا مفردة، لا تعني شيئا كما عندما نقول "طائر"، التي تحيل على مقولة يعرفها الجميع[40]، وهو ثانيا حتى وإن اعترفنا بوجوده، كلية غير مستقلة بذاتها، فلأجل خلق المجال إننا بالضرورة نتعامل مع الأشياء أي العناصر الفيزيائية، كيف إذن –يتساءل **بيل هيليير**- يمكن لشيء أن يكون مستقلا وهو مرتبط وجوديا بعناصر أخرى شكلا ووجودا؟ هل المجال إذن لا شيء[41]؟ كيف تجاوز **بيل هيليير** هذا العائق؟

يؤكد **هيليير** على أن المشكل الأساسي الذي أعاق فهم العلاقة من المجال والمجتمع، وبالتالي لم يسمح بالتعبير عنها بموضوعية تامة، هو عدم تمكن الباحثين من فهم البعد العلاقاتي للمجال بشكل صحيح، وربما هذا ناتج كما يرى **بيل هيليير** عن أن مفهوم العلاقة عند الفلاسفة كان دائما مشكلا فلسفيا كبيرا، فالعلاقة بين الاشياء تختلف تماما عن وجود الأشياء ذاتها كما يقول سارتر، وعلى هذا الأساس، **تقترح النظرية: أنه في اللحظة التي يتم النظر فيها إلى المجال علاقاتيا فإنه "يوجد" بمعنى ما:**

« It can be shown to really « exist » in some sens[42] »

الآن، كيف يمكن إذن التعبير عن هذا البعد العلاقاتي واقعيا باعتباره جوهرا أساسيا للمجال؟ تجيب النظرية عن التساؤل من خلال واقع بسيط جدا، إن لغتنا اليومية أي اللغة التي نتكلم بها،

[38] - Bill Hillier : The Art of Place and the Science of Space,op, cit, p.31
[39] - Bill Hillier : Space is the machine, Chapter 10 : laws of the field, p.215
[40] - Bill Hillier : The Art of Place and the Science of Space,p.24
[41] - Ibid, p.25
[42] - Ibid,p.34

تكشف عن الواقع المجالي وتراه بالطريقة الصحيحة، فجميع اللغات البشرية التي نعرف تمتلك مصطلحات مجالية[43]، وهذه المصطلحات ولتكن مثلا: بين/ داخل/ خارج/ فوق/ تحت/ أمام/ خلف، هي مصطلحات علاقاتية دوما، فأن نقول "بين" فهذا يعني أن هناك شيئا يوجد بين شيئين على الأقل أو مجال يوجد بين مجالين[44].

إن لا وعينا، حسب **بيل هيليير**، يستعمل المفاهيم المجالية **العلاقاتية** لتمثيل وتأويل العالم، وهذه العلاقات المجالية (اللغوية) هي في الحقيقة حسب علماء المعرفية وعلماء النفس أساسية لبناء الأفكار حول العالم، لذا وصف **بيل هيليير** هذه اللغة في بداية بناء النظرية باللغة الهندسية[45]، لكن المشكلة هنا، أن اللغة العادية أي الطبيعية لا تسعفنا في التعبير عن الأنساق المجالية المعقدة التي يمكن أن نجدها مثلا في المجال الحضري أو في العمران البشري عموما، كما في الأمثلة الواقعية:

(شكل-1- وهي بناء بشري فعلي)[46]:

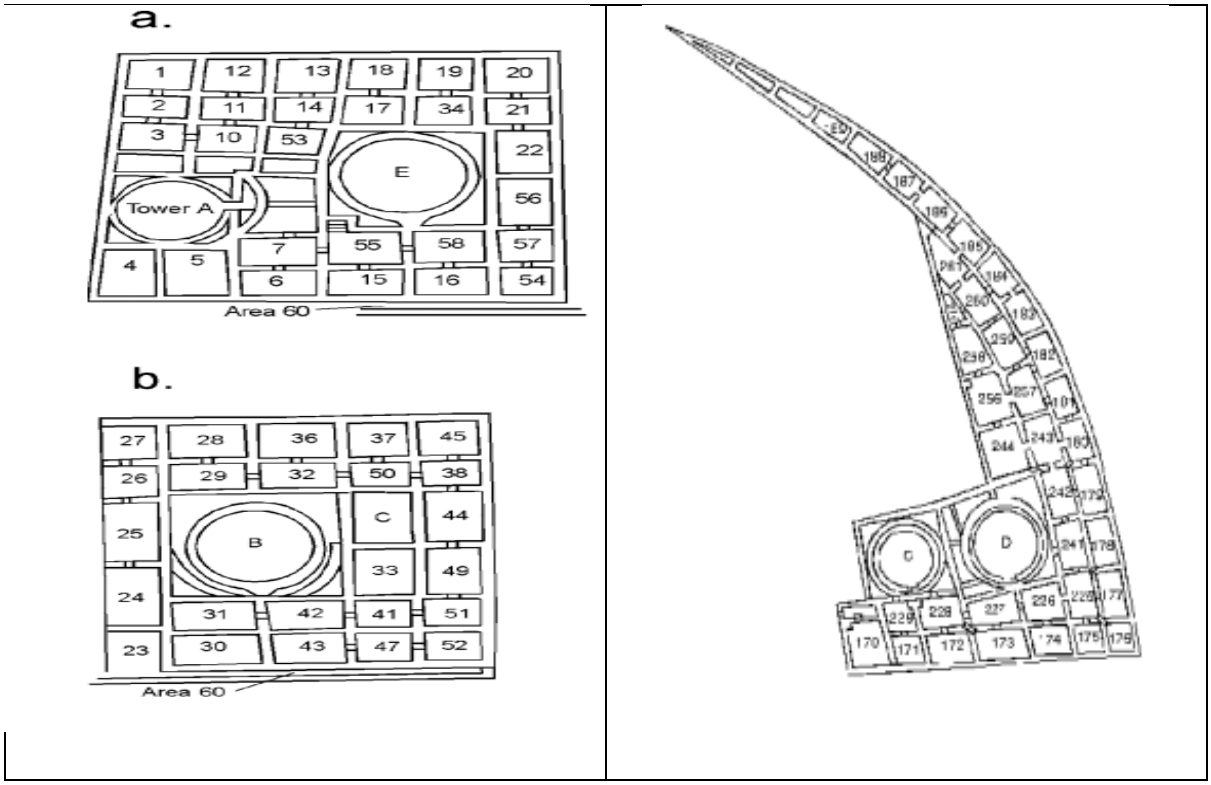

[43] - Ibid,p.27
[44]- social logic of space, op , cit, p.11
[45]- Bill Hillier : The common language of space, op,cit, p.345
[46]-Wendy Bustard : Space, Evolution and function in the houses of Chacocanyon, ssis, london1997 p 3-11

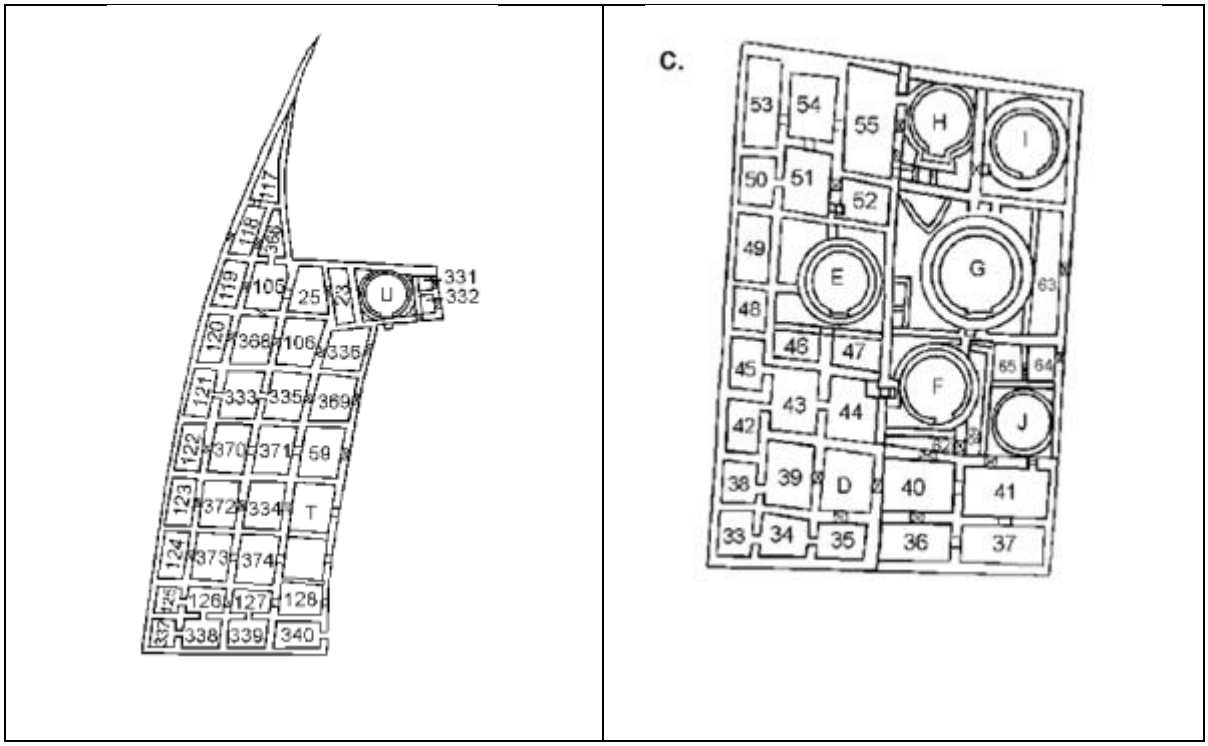

وهذا تحديدا ما تريد تجاوزه نظرية التركيب المجالي، إنها تريد أن تتعامل مع المجال الواقعي في كل أبعاده، مهما بلغت من التعقيد والتركيب، وهي بذلك تريد أن تتجاوز النظرة الحدسية للمجال كما تعبر عنها اللغة البشرية التي نتكلمها روتينيا، والتي في النهاية لا تعبر إلا عن علاقتين أو ثلاث علاقات مجالية في وقت واحد وكأقصى حد[47]، إن الفرق بين النظرية وكل المقاربات النظرية التي عرضناها سابقا يكمن هنا بالضبط، السؤال الآن كيف تحيط أو تعبر النظرية بالتالي عن العلاقات المجالية؟

هنا تصبح المسألة أعقد قليلا، فهذه العلاقات لا تعطى ببساطة، وتعقدها هذا هو الذي يحيلنا على مفهوم رئيسي داخل نظرية التركيب المجالي، فبدل الحديث على العلاقات المجالية تتحدث النظرية عن مفهوم التشكل المجالي Space configuration، الذي من خلاله يصبح للمجال القدرة أو الفاعلية المستقلة على تشكيل المجال المبني وتشغيله لأهداف معينة، أهداف اجتماعية وثقافية تحديدا.

4- كيف تكتب لغة المجال؟

يمكن أن نعتبر الجواب عن السؤال عبارة مختزلة لكل الغنى النظري والمنهجي لنظرية التركيب المجالي، إذ عبره يتضح بجلاء مدى التجاوز النوعي الذي أنجزته النظرية مقارنة بكل الأنساق المعرفية السابقة أوالمعاصرة لها، إن هناك فعلا قطيعة ابستمولوجية بين البناء النظري للنظرية وغيرها من المقاربات، **كيف تكتب لغة المجال إذن؟**

إن الجواب الذي تقدمه النظرية مرتبط بشكل مباشر بالتجربة الواقعية للإنسان، أي بحركيته الجسدية والبصرية وحياته الاجتماعية، وهكذا تبين النظرية أن المجال ليس فقط شكلا هندسيا،

[47] -Bill Hillier : The common language of space, op,cit, p.348

ولكنه أيضا نسق أو نظام يمتلك قدرات هندسية Geometric potentials مرتبطة ضرورة بالحياة الاجتماعية للانسان[48]، إننا ندرك العالم عبر ثلاثة أبعاد، لكن علاقتنا به في جزئها الاساسي تتبلور واقعيا و"أقدامنا على الارض" ، ولا يمكن لأي منا - بالنتيجة - لأن يفر من هذه الحقيقة العنيدة أو يتحايل عليها، لذا نستعمل الإمكانات التي تتيحها هذه العلاقة ونبني من خلالها واقعنا الاجتماعي ووجودنا كله في نهاية الأمر.

ويعبر **إدوارد كيسي** عن هذا الأمر بعبارة جميلة:

« There is no knowing or scuring a place except by being in that place, and to be in that place is to be in the position to perceive it »[49]

وهكذا، فإن تجربتنا المجالية تتبلور من خلال ثلاثة مظاهر مجالية واقعية، فالحركة العادية للإنسان تتحقق في المجال عبر محاور أو خطوط، في حين يفترض تفاعل الناس فيما بينهم مجالا محدبا يسمح بالوجود أو الحضور المشترك، وهم يعيشون تجربة المجال أيضا من خلال سلسلة من المجالات المنظورة، ويمكن ان نعبر عن هذه العلاقات الواقعية من خلال الأشكال التالية:

تمثيل أشكال العلاقة مع المجال في مستوياتها الثلاث: المحوري والتحدبي والمنظوري: Axial-Convex-Isovist (شكل-2-)[50]

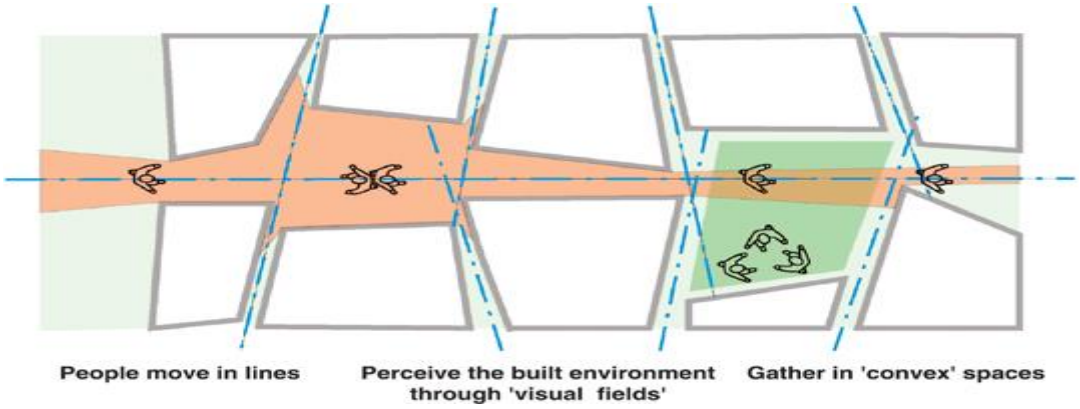

[48] - Bill Hillier :a note on the intuitive form,three issues in the theory of design, environement and planing,planing and design anniversary issue ,1998,p.p 37-40

[49] -Eduard Casey: How to get from space to place in a fairly short time ,In senses of places, ed, Steven Feld and Keith H.Basso, School of American Research,1996,p18.

[50] - www.palgrave- journals.com/udi/journal/v17/n4/fig_tab/udi201219ft.htm

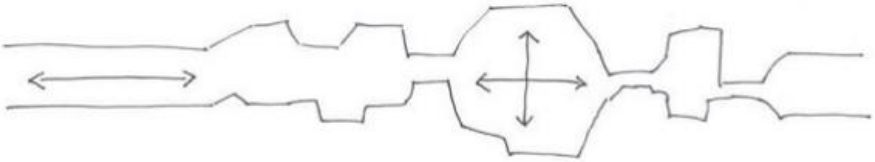

(شكل-3-)[51]

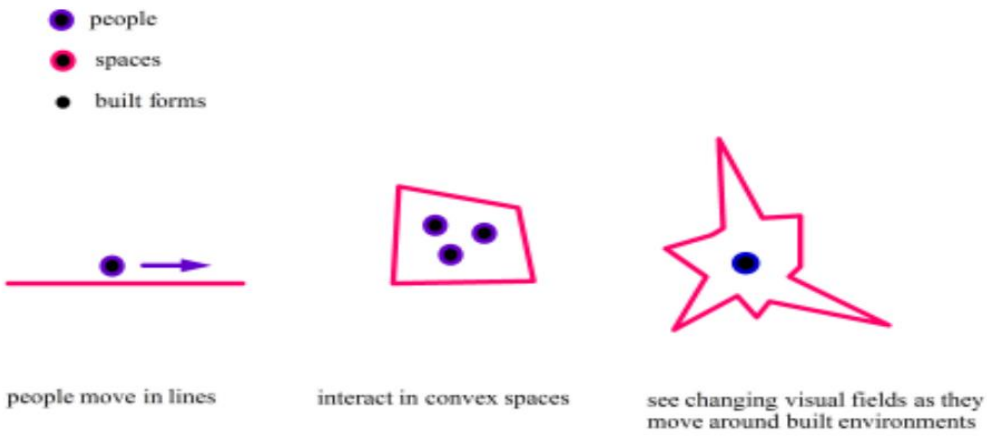

وتوجد هذه الامكانات واقعيا في آن واحد، لكن يمكن الاشتغال على كل مظهر بصورة مستقلة، وتحليله وفق منهج نظرية التركيب المجالي- أي بحساب ما يسمى القيم التشكلية- لإبراز بنية البناء ككل[52]، وبربط البنية المجالية بتلك القيم المرتبطة بالوظائف الملاحظة، يمكن مباشرة الكشف عن الثقافي والاجتماعي في البناء، وبهذا الصدد تقول جوليان هانسون:

« With the three points of view: convex spaces, axial lines or visual fields, will yield insight into how domestic space (for example) is organised for social purposes »[53]

عند هذه النقطة، لا مفر من تقديم مجموعة من الأمثلة للتوضيح، وهي للإشارة أمثلة تتكرر الآن في أزيد من 200 جامعة عبر العالم[54]، إن العلاقات المجالية توجد حيثما وجدنا رابطا يربط بين مجالين معينين أو أكثر، والرسم البسيط التالي يشرح ذلك:

[51]- Hillier, B; Vaughan, L: The city as one thing. Progress in Planning , 67 (3) , 2007, pp. 205-230.
[52]-ibid
[53] -julienne Hanson: Hanson Julienne: Decoding homes and houses, Cambridge University press, 2003, p.270.
[54]- Tim Stonor: Spatial Layout Efficiency of Space Syntax, on www.youtube.com

(شكل-4-)[55]:

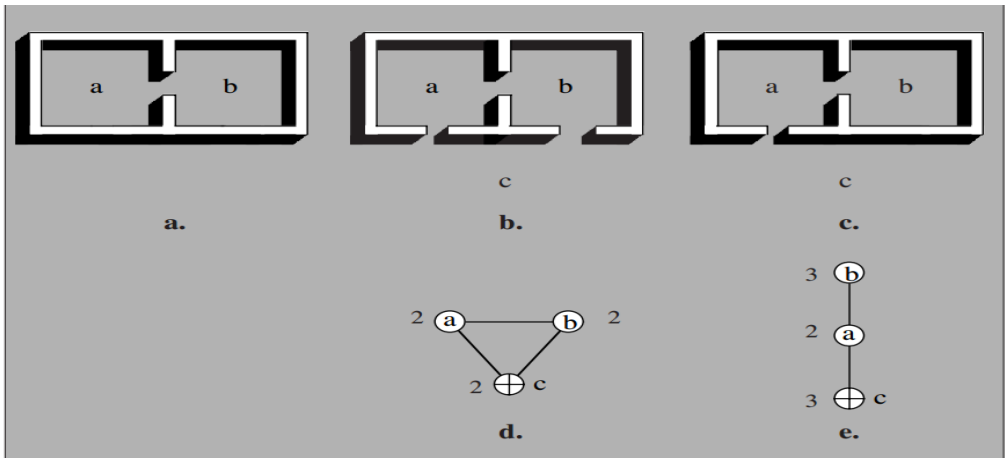

الرسم يمثل "بناء" مستطيل الشكل مقسما الى جزئين: مجالا a، ومجالا b، ومدخلا يخلق علاقة ولوجية الى المجال c، الذي يمكن أن نسميه مجالا خارجيا، في الحالة 1 يمكن القول بأن العلاقة بين a و b تماثلية بالمعنى الرياضي للتماثل، وفي الحالتين 2 و3، حيث أضفنا المجالين a و b الى مجال ثالث هو c، نجد أن المجال الأول وحده المرتبط مباشرة ب c ، ما يعني أنه للمرور الى b يلزم عبور المجال a بالضرورة، وفي هذه الحالة يكون a و b لامتماثلان بناء على العلاقة مع المجال الخارجي c .

و يمكن أن نقدم هذه العلاقات المجالية بطريقة مختلفة و بشكل مبسط من خلال ما تسميه النظرية **الخطاطة الدالة** Justified Graph، حيث نعتبر أنفسنا في مجال ما (ليكن مثلا المجال الخارجي) ونمثله بالعلامة ⊕، ونمثل المجال b ب Ⓑ، والمجال a ب Ⓐ ، ونمثل علاقة الاتصالية أو الولوجية بخط بسيط كما يظهر الشكل التالي مع الأمثلة.

(شكل -5-)[56] .

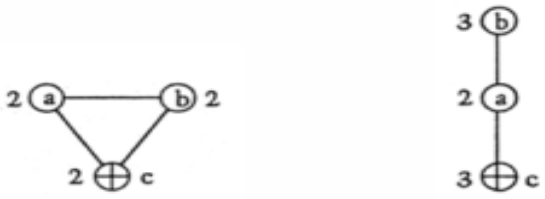

[55] - Julienne Hanson :Decoding homes and houses,op,cit,p.23
[56] -ibid,p.23

أمثلة:

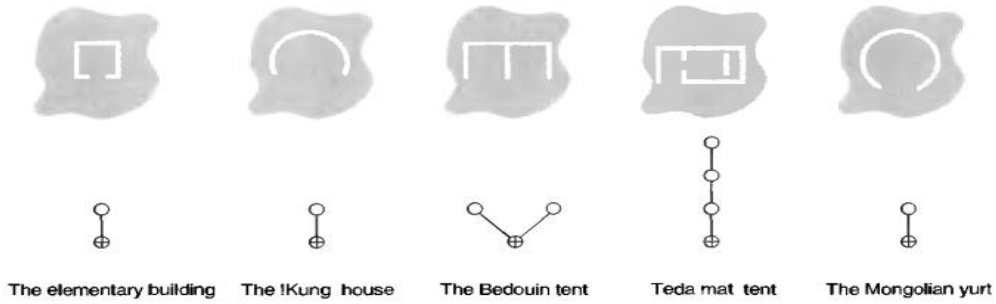

كما نلاحظ من خلال الخطاطات الدالة، تتكشف الاختلافات في العلاقات المجالية بصريا، **آنيا وبوضوح**، مقارنة مع الرسم التبسيطي الأول، ولكي تتبين أكثر القوة التوضيحية للخطاطات الداخلية الدالة نعرض فيما يلي لأمثلة أكثر تعقيدا وأقرب الى الواقع الحقيقي، وهي أمثلة يظهر فيها أن الاحاطة الشاملة بالتعقد المجالي لبناء ما، غير متاحة مباشرة، بالاعتماد فقط، على القاء نظرة على هندسة أو تصميم بناء ما، إن العلاقات المجالية أعقد بكثير.

وهذا يعني بتركيز شديد، أننا عندما نغير علاقة داخل التشكل المجالي، أي مركب العلاقات المجالية الكلية في النسق المجالي، فان التركيب كله **يصبح** مختلفا، وليس **فقط يبدو** مختلفا[57]، وتكتب جوليان هانسون في هذا السياق:

« Not all plans that look alike are configured alike »[58]

والأمثلة التالية حول التشكل المجالي توضح ذلك أكثر:

(شكل-6-)

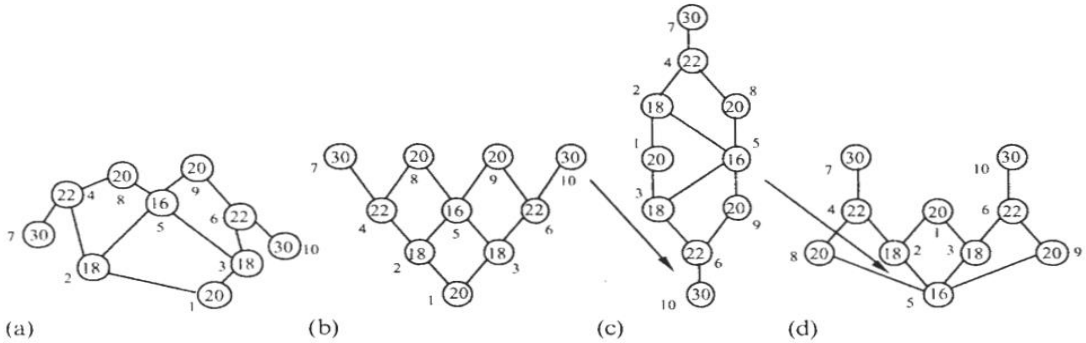

57- Bill Hillier :a note on the intuitive form,three issues in the theory of design, environement and planing,planing and design anniversary issue ,1998,p.p 37-40.
58- Julienne Hanson :Decoding homes and houses,op,cit,op,cit,p32

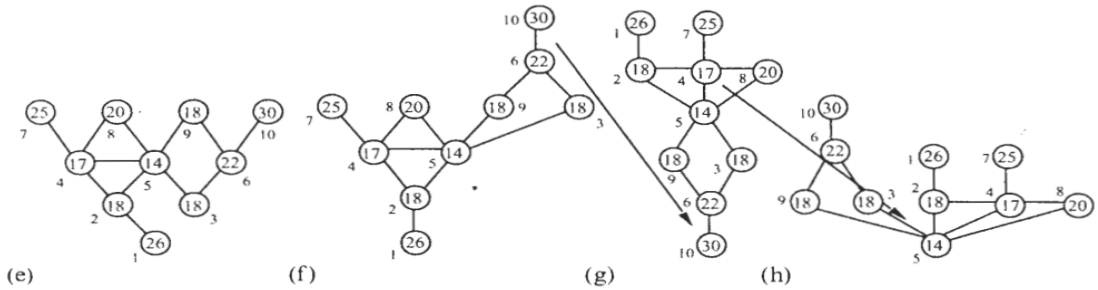

واستعمال الخطاطات الدالة لتوصيف العلاقات المجالية يمكن أن يتحقق على مستوى المجالات الداخلية، كما **يمكن أن يتم على مستوى المجالات المفتوحة أي المدن**، وهذا يعني ببساطة إمكانية تنزيل مختلف العلاقات المجالية بالمدينة بشكل يتجاوز التوصيف الهندسي كما تظهره تصاميم المهندسين المعماريين أو المخططين الحضريين، والأمثلة التالية توضح كيف يمكن أن يكتب النص الحضري باستعمال الخطاطات الدالة: وهو ما يوضحه الشكل التالي:

(-7-)[59]

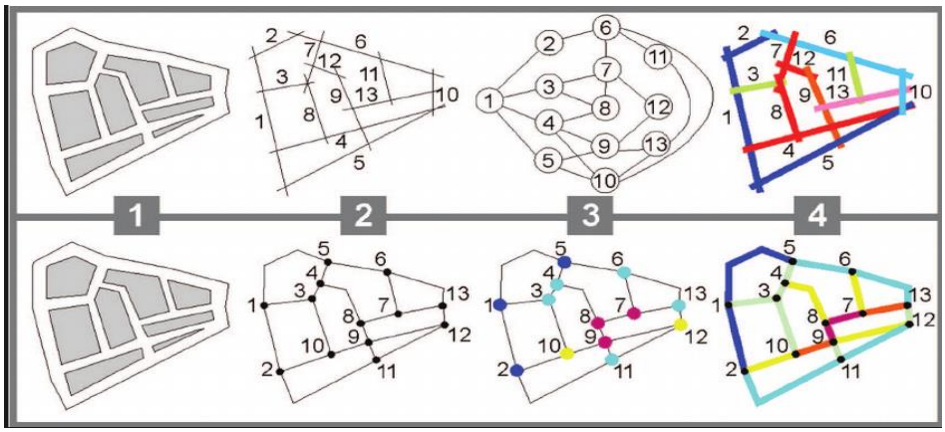

وفي حالة مدينة بحجم لندن، وآخذين بعين الاعتبار أن التدرج من اللون الأحمر إلى اللون البرتقالي فالأخضر إلى الأزرق، أو من الرمادي المغلق إلى الرمادي المفتوح، يحيل على درجة اتصالية كل مقطع في المدينة - قد يكون شارعا أو جزءا منه- مع باقي محاور المدينة، نحصل على ما يلي:

[59] - https://www.researchgate.net/figure/Color-Sketch-of-the-basic-steps-in-the-space-syntax-SS-approach-top-panel-and_fig1_7179558

شكل (-8-[60])

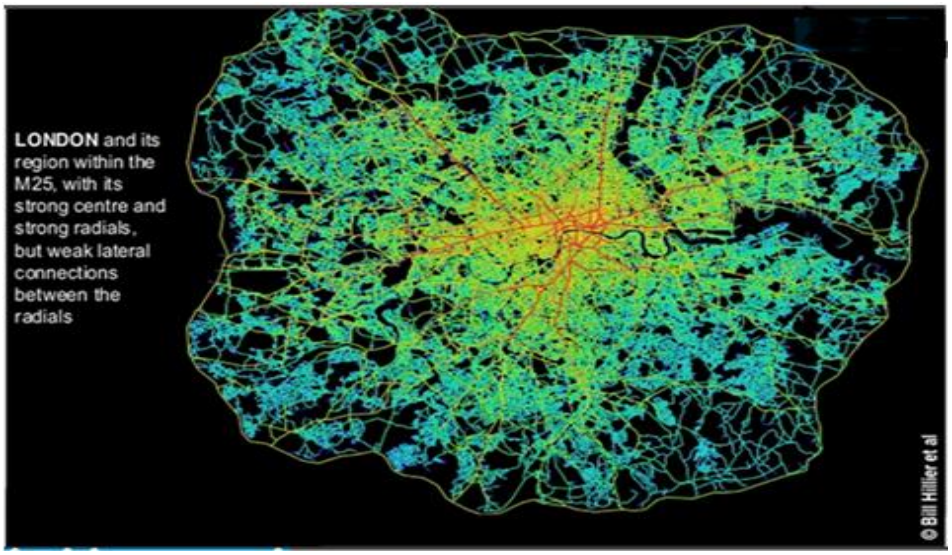

ان أهمية مفهوم التشكل المجالي تكمن في أن ما يهم في دراسة التنظيم المجالي هو العلاقات بين العناصر في الواقع:

« The importance of configurations for space syntax, shows that what are important in space are the relations between the elements than the attributes of the elements themselves.The elements, the parts affect the whole and the whole emerges from the parts in their distinctive configurational position, and the whole is highly sensitive to the part »[61]

لكن ليس هدف النظرية من خلال مفهوم التشكل المجالي وصف التنظيم المجالي علاقاتيا فقط، **ولكن** تجاوز مشكلة العلاقات المجالية في مظهرها المجرد، **والتعبير عنها وعن التغيرات** التي تطرأ عليها **رقميا، أي من خلال علاقات رياضية محددة تكشف لنا عن ما يسمى القيم التشكلية أو التركيبية للمجال**، وهي القيم التي يمكن أن تحيل على معاني ثقافية واجتماعية متى ما تمكنا من إيجاد ثبات رقمي بحساب هذه القيم، ما يعني وجود نموذج ثقافي أو اجتماعي داخل البناء، ما دام هذا الأخير في الأصل من إنتاج كائن اجتماعي. ماذا يعني هذا في الواقع؟ إنه يعني ببساطة أن:

« Functions of the building, thus acquired a spatial expression which could also be assigned a numerical value »[62]

6 - مفهوم البناء في نظرية التركيب المجالي .

ان ما تقترحه نظرية التركيب المجالي هو أن تحليل أبعاد التشكل المجالي هو الذي يمنحنا الرابط بين تصميم المنازل والمدن ومظاهرها وآثارها الاجتماعية، فمن خلال الخصائص التركيبية للتنظيم المجالي لبناء ما، نفهم بوضوح كيف يكون البناء حاملا للمعطيات الثقافية والاجتماعية في شكل تنظيمه واستعماله، أي كيف يكون البناء دالا سوسيولوجيا،

60 - https://timstonor.wordpress.com/2011/04/03/lincoln-lecture/
61 -Mavridou Magda :An investigation of space to society.A Discussion on Anthony Giddens,Henry Lefevbre and space syntax,MSC Thesis ,university college of london,Bartlett School London,15 september 2003,p23.
62- Julienne Hanson :Decoding homes and houses,op,cit, op,cit ,p.32

وهذه الطبيعة الخاصة للبناء – باعتباره كلية متضمنة وناقلة للثقافي والاجتماعي في آن واحد-هو ما جعل النظرية تخصص جزءا من بنائها المعرفي لتحديد مفهوم البناء ذاته.

ويبدأ **بيل هيلييير** لتعريف ماهية البناء من مستواه الأولي والبسيط، أي باعتباره تجميعا أو تراكما لمجموعة من العناصر المادية بشكل ما، لإنتاج أو خلق مجال متميز عن المجال المحيط، ويمتلك البناء مثله مثل كل الأشياء التي يصنعها الإنسان مظهرا وظيفيا، اي ما نعبر عنه بالاستعمال التطبيقي، الى جانب مظهر آخر يمكن أن نكشف عنه من خلال اسلوب البناء أو زخرفته مثلا، وهو المظهر الذي نعبر عنه بالمظهر الثقافي أو المعنى الاجتماعي للبناء[63].

لكن البناء يتميز مع ذلك عن باقي الأشياء بخاصية جوهرية، فهو ليس فقط شيئا فيزيائيا له شكل محدد، إنه تحديدا تحويل للمجال من خلال الأشياء، فما نهدف إليه في الحقيقة من خلال البناء ليس هو الشيء الفيزيائي في حد ذاته، ولكن تنظيم المجال لأغراض اجتماعية أو ثقافية أو رمزية، ان الشيء الفيزيائي هنا يصبح وسيلة فقط لتحقيق غاية أخرى[64]؟ وبالنتيجة لا يكفي أن نتحدث عن الأشياء فقط في البناء، ولكن أيضا عن العلاقات المجالية، الآن، ماهي تبعات النظر الى البناء وفق هذا المنظور؟

أولا: إننا نتجاوز التفسير الوظيفي للمفهوم، ان الوظيفة التي "يؤديها" بناء ما، هي بعد فقط من أبعاده المتعددة والواقعية، إن البناء يمكن أن يغير وظائفه في كل لحظة بالعمل على هذه العلاقات المجالية[65].

ثانيا: حديثنا عن العلاقات المجالية المنبثقة من البناء (التمظهرالمادي)، وهي العلاقات الناتجة عن فعل البناء البسيط ذاته، أي اقامة ما يمكن أن نسميه **حدودا**، لا يعني فقط أن البناء هو تجل فيزيائي على مساحة من الأرض، بل إننا نخلق بالموازاة مع التمييز الفيزيائي تمييزا منطقيا[66]، فمع فعل البناء تنشأ علاقات خاضعة لمنطق خاص هو منطق المجال ذاته، وهنا يمكن أن نتحدث عن انبثاق ممرات أو دروب ذات خاصيات معينة تفرض نمط استعمال معين.

ثالثا: ينتج عن فعل البناء ذاته تمييز اجتماعي، وبالتالي منطق اجتماعي، فإقامة أو إنشاء حد هو من فعل كائن اجتماعي، وبالتالي ليس البناء فعلا فيزيائيا فقط، انه فعل اجتماعي[67]، وهذا التمييز يمكن أن يتمظهر مثلا في اقتران مجالات معينة بمجموعات اجتماعية محددة، تختلف فيما بينها في درجات أو مستويات "من يملك الحق أكثر" أو "من يتحكم في" أو "من يراقب من" في المجال، وهذا هو تحديدا ما يسمه **بيل هيلييير** بالطبيعة الجدلية للحد: 1- إنه يخلق فئة مجالية محددة (مجالا داخليا ما)، 2- إنه ينتج في الآن نفسه شكلا ما من المراقبة أو التحكم.

وتبعا لهذا، يمكن أن نفهم كيف ينتقل البناء فعليا من كونه موضوعا ماديا، الى موضوع اجتماعي وثقافي: إن بناء ما هو تنظيم مجالي، وفي الآن نفسه، تنظيم للعلاقات الاجتماعية بين الناس، بعبارة أخرى،

63- Hillier Bill, Hanson Julienne: social logic of space, Cambridge university press, 1984, p.4
64- ibid
65- space is machine, p 289
66 -Ibid, p.15.
67 - Ibid, p.16

ان خلق شكل مجالي يقترن بخلق شكل اجتماعي ، ليس البناء اذن خلفية لسلوك اجتماعي، انه ذاته سلوك اجتماعي، وبالتالي بقدر ما يمكن أن نعتبر المجتمع مبنيا أو مؤسسا بشكل ما على: أشكال إنتاج محددة أو مؤسسات اجتماعية أو دينية، فإن **الشكل المجالي** الناتج عن فعل البناء الاجتماعي –لأنه محدد رئيسي لتنظيم العلاقات بين الناس- **بإمكانه أن يولد أو يقلص التفاعلات واللقاءات أو الحضور المشترك للناس في مجالات معينة، وبالتالي يصبح المجال مبنينا للمجتمع، وبعبارة بيل هيلييز: يخترق المجال المجتمع في كل لحظة بهذا الشكل**[68]، وهذه العلاقة المنبثقة من فعل البناء البسيط هي أساس كل الخاصيات التشكلية أو التركيبية المستقبلية للمجال، والتي يصبح من خلالها البناء ككل موضوعا اجتماعيا وذا دلالة سوسيولوجية، ما يعني أن وظيفة المجال ذاتها تمر عبر التشكل المجالي[69].

7- خاتمة

إن حضور الثقافي والاجتماعي في المجال يمر حتما عبر شكل مجالي ما، ودون التحقق المجالي لبنيات اجتماعية أو ثقافية في صورة بناء ذي شكل ما، لن نعرف أبدا أن هذه البنيات توجد حقا[70]، وبالتالي فانه لا يمكن أن نقرأ الثقافة في المجال إلا عبر الشكل المجالي.

ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن العلاقة بين الشكل والمجال ليست علاقة اعتباطية أبدا، إنها منطقيا العلاقة التي نفهم من خلالها ما نسميه الثقافة أو المظاهر الثقافية في المجال، وما تقدمه نظرية التركيب المجالي تحديدا هو إمكانية لقراءة مضمون أو محتوى هذا الشكل المجالي كما نقرأ أي نسق سيميائي.

بتركيز شديد، إذا كان لمظهر ثقافي أو اجتماعي أن يحضر في الواقع المجالي، فإنه يفعل ذلك بصور متعددة مثل النماذج الفيزيائية أو المادية، أي ما يتعلق بالشكل المادي للبناء ذاته، أو يفعل ذلك باعتباره نسقا سيميائيا، ولكنه يفعل ذلك - وهذا أمر هام جدا - عبر الشكل المجالي، والإشكال الحقيقي هنا هو: كيف نكشف عن هذا الثقافي ضمن هذه الأشكال المجالية؟ الجواب ممكن من خلال ابتكار لغة للمجال، وهذا تحديدا ما فعلته نظرية التركيب المجالي.

نتائج وتوصيات

انتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا: على أهمية المقاربات السيميائية المختلفة للمدينة، فإن المشكلة الكبرى لسيمياء المدينة تكمن تحديدا في عدم تمكن السيميائيين من التعامل مع المدينة باعتبارها نسقا سيميائيا لسانيا بالرغم من أنهم يعتبرونها نصا اجتماعيا، وأكبر تمظهر لهذه المشكلة يكمن في تعاملهم مع معاني المجالات الحضرية باعتبارها مجرد عناصر مضافة إلى البعدين المادي والفيزيائي لهذه المجالات وليست جزءا متجذرا فيها.

68 - Space is the machine,op, cit, p.310
68- Vinicius. M. Netto: Is Architecture An Active Part Of Life? From the form-function paradigm to space as context of practice,in Arquitectura Revista,v1,n2, jul-dez, 2005, p 37-40
70 -Bill Hillier : space is machine, p.343

ثانيا: تقدم السوسيولوجيا الحضرية أطرا نظرية ومنهجية تكشف عن أهمية البعد المجالي كعنصرأساسي في تحديد المدينة كنص اجتماعي، غير أن السوسيولوجيا رغم تقديمها لنظريات ساعدت على قراءة المجالات الحضرية بشكل أكثر عمقا من السيميائيات، لم تتمكن من تحديد منطق المدن باعتبارها نصا اجتماعيا.

ثالثا: تقدم نظرية التركيب المجالي لسيمياء المدينة كما للسوسيولوجيا الحضرية إطارا نظريا ومنهجيا يعتبر أن المدينة ليست فقط خلفية أو مسرحا تقع فيه الممارسات الاجتماعية، بل هي نفسها سلوك اجتماعي، وتقترح النظرية بناء على ذلك إمكانية لقراءة مختلف الممارسات المجالية والاجتماعية داخل المدن.

أما فيما يتعلق بالتوصيات فيمكن تركيزها كالتالي:

أولا: ضرورة انفتاح العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تدرس المدينة على أطر نظرية ومنهجية تنتمي إلى الهندسة المعمارية والمورفولوجيا الحضرية.

ثانيا: لا يصح مقاربة المجالات الحضرية سيميائيا بالاقتصار فقط على مناهج التحليل السيميائي، إن السوسيولوجيا الحضرية قد تكون ذات فائدة حقيقية.

ثالثا: جزء من البناء المعرفي الموضوعي لواقع المدن يمر ضرورة عبر التعريف الدقيق لمفهوم وطبيعة المدينة مجاليا واجتماعيا، وهو ما يفرض على الباحث ضرورة الوقوف عند التحديد الأنطولوجي للمدن باعتبارها واقعا اجتماعيا قبل الخوض في الإشكالات الابستمولوجية والمنهجية المقترنة بهذا البناء المعرفي.

بيبليوغرافيا

- **Alexandros.Ph. Lagoupolos** : The social semiotics of space: Metaphor, ideology, and political economy, in semiotica, 2009.
- **Barthes Roland** : *Éléments de sémiologie*, Paris, Denoël, 1965.
- **Casey Eduard**: How to get from space to place in a fairly short time ,In senses of places, ed, Steven Feld and Keith H.Basso, School of American Research,1996.
- **Hanson Julienne**: Decoding homes and houses, Cambridge University press, 2003.
- **Hillier Bill, Hanson Julienne**: social logic of space, Cambridge University press, 1984.
- **Hillier Bill** : A note on the intuitive form, three issues in the theory of design, environement and planing, planing and design anniversary issue ,1998.
- **Hillier Bill** : The common language of space; a way of looking at the social, economic and environmental functioning of cities on a common basis, Journal of environmental science,V11, N3, 1999.
- **Hillier Bill**: Space is the Machine, A configurational theory of architecture, Cambridge University press, 1999.

- **Hillier Bill** : A Theory of the City as Object , Or how spatial laws mediate the social construction of urban space, Proceedings Of The 3rd International Space Syntax Symposium Atlanta 2001.
- **Hillier Bill** : The Art of Place and the Science of Space, World Architecture 11,185, Special issue on Space Syntax,2005.
- **Hillier Bill;Vaughan Laura**: The city as one thing. Progress in Planning 67 (3) , 2007.
- **Eco Umberto** : Function and Sign: Semiotics of Architecture, in Rethinking Architecture: A Reader in Cultural Theory 2nd Edition by Neil Leach , 1997.
- **Gianfranco Marrone**: Sémiotique et critique de la culture. Espace, nourriture, nature, objets traduction de Rovena Troque, Edition Fabula, 2018.
- **Greimas A.J.** : Sémantique Structurale, Paris, Larousse, 1966.
- **Hye Kim** : Kim.R.Hye : Habiter : Perspectives philosophiques et éthiques, De Heidegger à Ricoeur, These de Doctorat, Université de Strasbourg, Faculté de la théologie protestante, 2010-2011.
- **Lefebvre Henri** :La production de l'espace, Paris: Anthropos, 1974.
- **Lefebvre Henri** : Le Droit à la ville, Paris: Anthropos, 1968.
- **Mavridou Magda** :An investigation of space to society. A Discussion on Anthony Giddens, Henry Lefebvre and space syntax, MSC Thesis, university college of London, Bartlett School London,15 september 2003.
- **Vinicius. M. Netto**: Is Architecture An Active Part Of Life? From the form-function paradigm to space as context of practice, in Arquitectura Revista,v1,n2, jul-dez, 2005.
- **Unwin Tim** : A Waste of Space? Towards a Critique of the Social Production of Space, Transactions of the Institute of British Geographers,Volume 25, Issue 1, pages 11–29, April 2000.
- **Wendy Bustard** : Space, Evolution and function in the houses of Chacocanyon, ssis, london1997

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v2.18.8